الحلقة (٣١)

تحدثنا وقلنا أن **التأويل في كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم هو الحقيقة التي يؤول إليها الكلام، فتأويل الخبر هو عين المخبر به، وتأويل الأمر هو نفس المأمور به**، كما قالت عائشة رضي الله عنها كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول في ركوعه (سبحانك اللّهُمَّ ربنا وبحمدك اللّهُمَّ اغفر، لي يتأول القرآن) وقال تعالى {هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُ يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلُهُ يَقُولُ الَّذِينَ نَسُوهُ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ} فمنه تأويل الرؤيا، وتأويل العمل، كقوله {هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ} وقوله {وَيُعَلِّمُكَ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ} {ذلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا} وقوله {سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا} وقوله {ذَلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا} فمن ينكر وقوع مثل هذا التأويل، والعلم بما يتعلق بالأمر والنهي منه؟!

أما ما كان خبرا، كالإخبار عن الله وعن اليوم الآخر، فهذا لا يعلم تأويله إلا الله، لا يُعلم تأويله الذي هو حقيقته إذا كانت لا تعلم بمجرد الإخبار، فإن المخبَر إن لم يكن قد تصور المخبر به، أو ما يعرفه من قبل ذلك، لم يعرف حقيقته، لو أخبرتك عن الرمان وأنت لا تعرفه، فلن تستطيع تصوره، لأنك لم تعرفه من قبل.

لم يعرف حقيقته التي هي تأويله بمجرد الإخبار، وهذا هو التأويل الذي لا يعلمه إلا الله، **ولكن لا يلزم من نفي العلم بالتأويل نفي العلم بالمعنى الذي قصد المخاطِبُ إفهام المخَاطب إياه.**

فما في القرآن من آية إلا وقد أمر الله بتدبرها، وما أنزل آية إلا وهو يحب أن يُعلم ما عنى بها، وإن كان من تأويله مالا يعلمه إلا الله، فهذا معنى التأويل في الكتاب والسنة وكلام السلف، سواء كان هذا التأويل موافقا للظاهر أو مخالفا له.

والتأويل في كلام كثير من المفسرين كابن جرير ونحوه يريدون به: تفسير الكلام وبيان معناه، سواء وافق ظاهره أو خالفه، وهذا اصطلاح معروف، وهذا التأويل كالتفسير، يحمد حقه ويرد باطله.

وقوله تعالى {وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ} فيها قراءتان:

قراءة من يقف على قوله (إلا الله)، وقراءة من لا يقف عندها، وكلتا القراءتين حق، **ويراد بالأولى المتشابه في نفسه**، الذي استأثر الله بعلم تأويله، **ويراد بالثانية المتشابه الإضافي**، الذي يعرف الراسخون تفسيره وهو تأويله، ولا يريد من وقف على قوله (إلا الله) أن يكون التأويل بمعنى التفسير للمعنى، فإن لازم هذا أن يكون الله أنزل على رسوله كلاما لا يعلم معناه جميع الأمة ولا الرسول، ويكون الراسخون في العلم لا حظ في معرفة معناها سوى قولهم { آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا }!!

وهذا القول يقوله غير الراسخ في العلم من المؤمنين، يقول { آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا }، والراسخون في العلم يجب امتيازهم عن عوام المؤمنين في ذلك، **وقد قال ابن عباس** :"أنا من الراسخين في العلم

الذين يعلمون تأويله"، وهذا **الأثر أخرجه ابن جرير**، ولقد صدق ابن عباس رضي الله عنه، فإن النبي صلى الله عليه وسلم دعا له وقال (اللَّهُمَّ فقه في الدين، وعلمه التأويل) رواه البخاري، ودعاؤه صلى الله عليه وسلم لا يرد، قال مجاهد: عرضت المصحف على ابن عباس من أوله إلى آخره، أقفه عند كل آية وأساله عنها، وقد تواترت النقول عنه أنه تكلم في جميع معاني القرآن، ولم يقل عن آية إنها من المتشابه الذي لا يعلم تأويله إلا الله.

وقول الأصحاب رحمهم الله في الأصول **(الأحناف)**]إن المتشابه الحروف المقطعة في أوائل السور] **ويروى هذا عن ابن عباس**، مع أن هذه الحروف قد تكلم فيها أكثر الناس، فإن كان معناها معروفا فقد عرف معنى المتشابه، وإن لم يكن معروفا وهي المتشابه كان ما سواها معلوم المعنى، وهذا هو المطلوب.

وأيضا فإن الله قال{**مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ**}، وهذه الحروف ليست آيات عند جمهور العادّين، والتأويل في كلام المتأخرين من الفقهاء والمتكلمين هو: **صرف اللفظ عن الاحتمال الراجح إلى الاحتمال المرجوح لدلالة توجب ذلك**، وهذا هو التأويل الذي يتنازع الناس فيه في كثير من الأمور الخبرية والطلبية، **فالتأويل الصحيح منه أقصد هذا المعنى من التأويل** صرف اللفظ عن الاحتمال الراجح إلى الاحتمال المرجوح لدلالة توجب ذلك: هذا هو التأويل الذي يتنازع الناس فيه في كثير من الأمور الخبرية والطلبية.

فالتأويل الصحيح منه، الذي يوافق ما دلت عليه نصوص الكتاب والسنة، وما خالف ذلك فهو التأويل الفاسد، وهذا مبسوط في موضعه، وذكر **النسفي في التبصرة أن نصير بن يحي البلخي روى عن عمر بن إسماعيل بن حماد بن أبي حنيفة عن محمد بن الحسن رحمهم الله** "أنه سئل عن الآيات والأخبار التي فيها من صفات الله تعالى ما يؤدي ظاهره إلى التشبيه، فقال: نمرها كما جاءت، ونؤمن بها، ولا نقول كيف وكيف".

ظاهر الآيات أصلا لا يؤدي ظاهره إلى التشبيه، ومن عرف اللغة العربية وتأمل القرآن علم أن ظاهر الآيات لا يؤدي إلى التشبيه، ومع ذلك قال محمد بن حسن عندما سئل عن هذا "نمرها كما جاءت، نؤمن بها ولا نقول كيف وكيف" ويجب أن يُعلم أن المعنى الفاسد الكفري ليس هو ظاهر النص، ولا مقتضاه، وأن من فهم ذلك منه فهو لقصور فهمه ونقص علمه، وإذا كان قد قيل في قول بعض الناس:

وكم من عائب قولا صحيحا *** وآفته من الفهم السقيم

وقيل:

علي نحت القوافي من أماكنها *** وما علي إن لم تفهم البقر

يعني من قوله وكم من عائب...... البيت، إن كثيرا من الناس يعيبون كثيرا من الأقوال، والحقيقة أن

القول الذي عابوه هو الحق، بل عيبهم هو المعيب، دل على نقصهم في حكمهم وفي عقلهم، فيجب أن يعلم أن المعنى الفاسد الكفري، مثل: "أن ظاهر النصوص يفيد التشبيه" ليس هو ظاهر النص ولا مقتضاه، وأن من فهم ذلك فإنه لقصور في فهمه ونقص في علمه، فكيف يقال في قول الله عز وجل الذي هو أصدق كلام وأحسن الحديث وهو الكتاب الذي {أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ}؟! إن حقيقة قول المتأولين: "إن ظاهر القرآن والحديث هو الكفر والضلال وأنه ليس فيه بيان لما يصلح من الاعتقاد ولا فيه بيان التوحيد والتنزيه" هذا هو حقيقة قولهم عندما يتأولون.

والحق أن ما دل عليه القرآن فهو الحق، وما كان باطلا لم يدل عليه، والمنازعون يدعون دلالته على الباطل الذي يتعين صرفه، فيقال لهم هذا الباب الذي فتحتموه، وإن كنتم تزعمون أنكم تنتصرون به على إخوانكم المؤمنين في مواضع قليلة، فقد فتحتم عليكم بابا لأنواع المشركين والمبتدعين، لا تقدرون على سده، فإنكم إذا سوغتم صرف القرآن عن دلالته المفهومة بغير دليل شرعي، فما الضابط فيما يسوغ تأويله وما لا يسوغ تأويله؟

عندنا أهل البدع يأولون القرآن بحسب بدعهم، يأولونه تأويلا فاسدا، ويحرفونه عن مواضعه، فيقولون {الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى} أن استوى بمعنى استولى، فتأولوه تأويلا فاسدا، ونقول لهم هذا الباب الذي فتحتموه وإن كنتم تزعمون أنكم تنتصرون حيث يلجئون لهذا التأويل حتى ينزهوا الباري، فنقول لهم إنكم تنتصرون على أهل السنة الذين يخالفونكم ويقولون أن النصوص تبقى على مراد الله ومراد رسول الله، فإنكم وإن تنازلنا عنكم، فقد فتحتم عليكم بابا لأنواع المشركين والمبتدعين لا تقدرون على سده، فإنكم إن سوغتم صرف القرآن عن دلالته المفهومة بغير دليل شرعي، فما الضابط فيما يسوغ تأويله وما لا يسوغ؟

فإن قلتم ما دل القاطع العقلي على استحالته تأولناه، وإلا أقررناه، يقال لكم بأي عقل نزن؟ وإلى عقل من نحتكم؟ فإن القرمطي الباطني يزعم قيام القواطع على بطلان ظواهر الشرع [الباطنية يزعمون أن الدين له ظاهر وباطن]، ويزعم الفيلسوف قيام القواطع على بطلان حشر الأجساد [الفلاسفة ينكرون حشر الأجساد]، ويزعم المعتزلي قيام القواطع على امتناع رؤية الله تعالى، وعلى امتناع قيام علم أو كلام أو رحمة به تعالى (ينكر المعتزلة رؤية الله تعالى لأنها تخالف العقل ووو....) وباب التأويلات التي يدعي أصحابها وجوبها بالمعقولات أعظم من أن تحصر في هذا المقام.

◄ **ويلزم حينئذ محذوران عظيمان:**

١. أن لا نقر بشيء من معاني الكتاب والسنة حتى نبحث قبل ذلك بحوثا طويلة عريضة في إمكان ذلك بالعقل، وكل طائفة من المخالفين في الكتاب يدّعون أن العقل يدل على ما ذهبوا إليه، فيؤول الأمر إلى الحيرة وإلى الضياع، وإلى انفلات الأمر، **هذا من باب التنزل والمجادلة.**

٢. أن القلوب تنحل على الجزم بشيء تعتقده مما أخبر به النبي صلى الله عليه وسلم، ونحن ذكرنا في

الحلقة الأولى معنى العقيدة، وأن معناها تدور على الشد والعقد والربط، إذ لا يوثق بأن الظاهر هو المراد والتأويلات مضطربة، فيلزم عزل الكتاب والسنة عن الدلالة والإرشاد إلى ما أنبأ الله به العباد، وخاصةُ النبي صلى الله عليه وسلم هي الإنباء، -أي الإخبار- والقرآن هو النبأ العظيم، ولهذا نجد أهل التأويل إنما يذكرون نصوص الكتاب والسنة للاعتضاد لا للاعتماد، وأهل السنة يذكرونها للاعتماد عليها، أما أهل الكلام والبدع فإنهم يذكرون الأدلة للاعتضاد لا للاعتماد، إن وافقت ما ادعوا أن العقل دل عليه؛ وإن خالفته أولوه، وهذا فتح باب الزندقة والانحلال، نسأل الله العافية.

قول المؤلف رحمه الله "**ومن لم يتوق النفي والتشبيه زل ولم يصب التنزيه**" النفي والتشبيه مرضان من أمراض القلوب، فإن أمراض القلوب نوعان:

١. مرض شبهة ٢. مرض شهوة.

وكلاهما مذكور في القرآن، قال تعالى {فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ} فهذا مرض الشهوة، وقال تعالى {فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا}وقال تعالى {وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَى رِجْسِهِمْ} فهذا مرض الشبهة، وهو أردأ من مرض الشهوة، إذ مرض الشهوة يرجى له الشفاء بقضاء الشهوة وزوال موجبها، ومرض الشبهة لا شفاء له إن لم يتداركه الله برحمته.

فمثلا عند تقدم السن فإن الشهوات التي كانت فتنة للشباب ستزول وقت الكبر، لأنه زال موجبها، لذلك تُوعد كبير السن إذا فعل معاصٍ بأكثر مما يتوعد به الشباب كما جاء في الحديث، تغليظ العقوبة على الأشيمط الزاني لأنه تقدم به العمر فصار داعي الزنا عنده أقل من داعي الزنا عند الشباب، فمرض الشهوة يرجى له الشفاء أو زوال مسبب هذه الشهوة، ومرض الشبهة لا شفاء له إن لم يتداركه الله برحمته.

لذلك يقول العلماء إن الشهوة وفتنة الشهوة ومرض الشهوة أخف وطأة وضررا على مرض الشبهة، فصاحب الشهوة إذا انقضت هذه الشهوة أو زال موجبها انتهت وانطفأت نارها، لكن الشبهة متى ستنطفئ ما دام يظن أنه على الحق وهو على الضلال؟؟{ أَفَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَنًا } وهذا في الحقيقة ما يقع في هذه الأيام من أصحاب التفجيرات من الإرهابيين، وهم من يطلق عليهم الفئة الضالة ومن يسلك مسلكهم من الخوارج، بل تعدوا هذا المصطلح إلى القرمطة، فهم يسرقون ويكذبون ويتزيون بزي النساء، ويفعلون أعمالا لم يفعلها الخوارج المبتدعة في زمانهم، والخوارج كانت عندهم مرض الشبهة، فخرجوا على الأئمة وعلى ولاة الأمور، وقال الرسول صلى الله عليه وسلم في وصفهم (إنهم قوم تحقرون صلاتكم إلى صلاتهم وقراءتكم عند قراءتهم يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية) فهذه الشبهة لا يظن زوالها إلا أن يتدارك الله صاحبها برحمته، والشبهة في مسألة الصفات نتحدث عنها في الحلقة القادمة، والله أعلم.